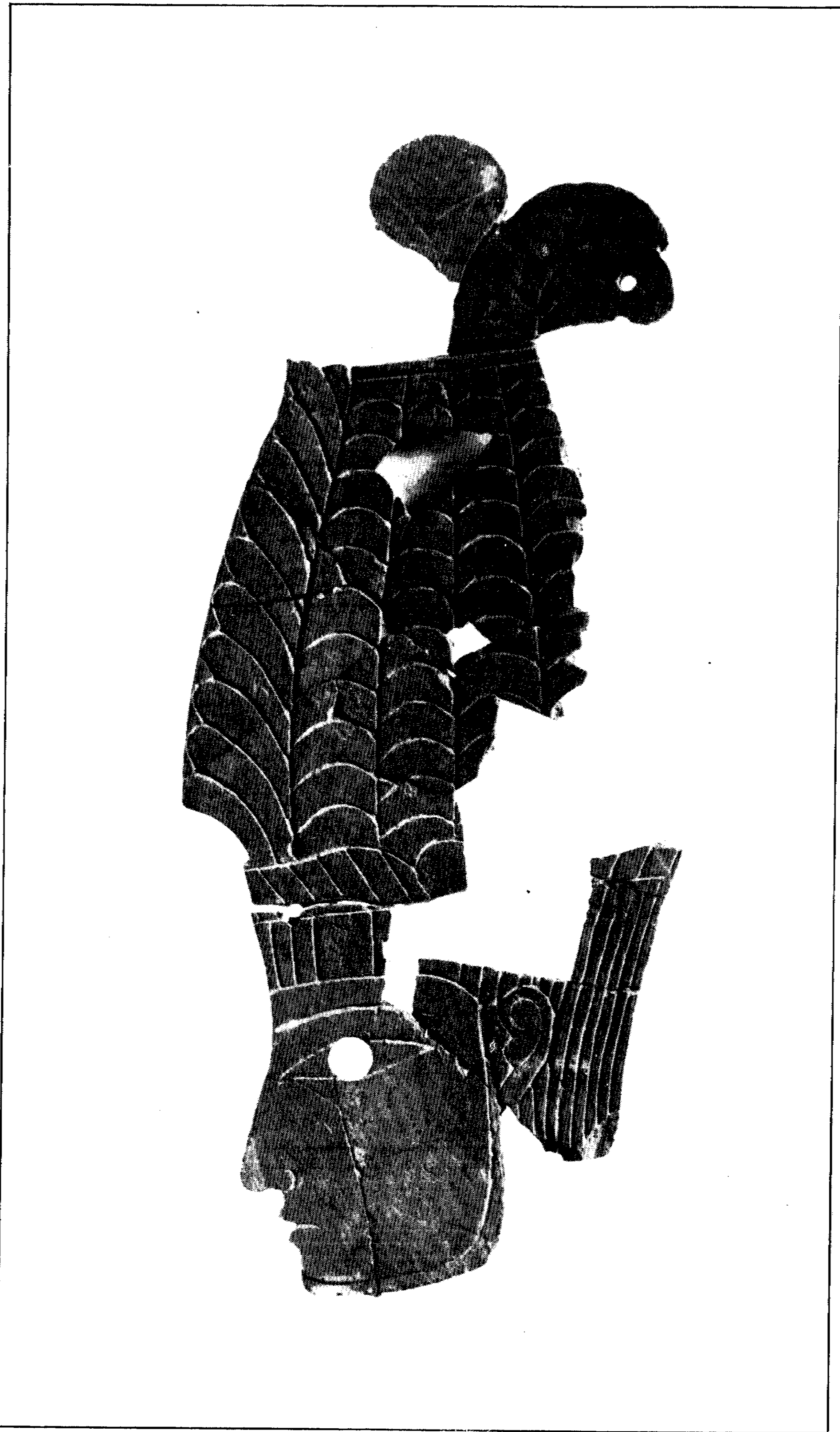


اقدم انتاج عاجي في سورية اكتشف في القصر الشمالي يعود تاريخه الى 1825 - 1750 ق.م .

10

المؤلف يحاور البروفيسور باولو ماتييه



البروفيسور باولو ماتييه .

لم يسبق لعلم الآثار ان فوجىء باكتشاف ضخم مثلما حدث في موقع إبـــلا (تل مرديخ) الذي اضاف صفحة ناصعة للغاية الى تاريخ سورية ، وحضارتها الرفيعة في فترة سحيقة في القدم ، وقد اثبتت ترجمات رقمها المسمارية البالغ عددها حوالي 16,5 الف رقيم بين صحيح ومجزأ ، انها كانت مركزاً لقوة كبرى هيمنت فترة طويلة من الالف الثالث قبل الميلاد على اسية الامامية لدرجة ان دولة عظمى مثل اكاد ، قد اضطرت يوماً الى دفع الجزية الى ملوك إبـــلا .

لقد اثبتت مكتشفات إبـــلا التي مازالت اخبارها تتوارد الينا سنوياً ، انها كانت عاصمة لحضارة رفيعة المستوى ، ومدينة راقية دلت على ذلك مظاهر العمران والبناء التي بينت اوجهاً اصيلة ومستقلة بشكل اساسي ، وتجعل من سورية على الصعيد الحضاري مثلما هي على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، بلداً يحتل مركزاً سياسياً للحضارة في الشرق الادنى جنباً الى جنب مع بلاد الرافدين ووادي النيل .

في نهاية الموسم الاثري الحالي ، يكون قد مضى خمسة وعشرون عاماً ، على بداية العمل المنهجي في موقع إبـــلا (تل مرديخ) الذي تقوم به البعثة الاثرية الايطالية التابعة لجامعة روما برئاسة البروفيسور باولوماتييه ، فكانت هذه المناسبة ، فرصة جيدة للشخوص الى موقع العمل برفقة المدير العام للآثار والمتاحف الدكتور علي ابو عساف ، ومدير التنقيب والدراسات الاثرية الدكتور عدنان البني ، لقضاء ساعات ممتعة بين اطلال هذه المدينة العريقة ، والاطلاع على احدث كشوفها الرائعة ، واجراء الحوار التالي مع البروفيسور باولو ماتييه :

● دكتور ماتييه في البداية انقل اليكم تهنئة الزملاء على اكتشافكم لوحات اثرية نادرة منزلة بالصدف ، تمثل مشاهد حربية تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد ، مقرونة بذكرى اليوبيل الفضي لبدء العمل في إبـــلا ، ونرجو منكم اعطائنا لمحة عن هذه المكتشفات الحديثة ؟!

●● شكراً لكم على التهنئة ، ويسرني ان اخبر القراء باننا نخطط لانجاز الكثير من الاعمال الكبيرة ، في اماكن متعددة من مدينة إبـــلا القديمة ، لهذا فنحن نعمل الآن في اماكن متفرقة من المدينة من خلال الاعمال المعمارية والطبوغرافية ، نحن نعمل في ثلاثة اماكن اولها : القصر الملكي الذي يعود تاريخه الى الالف الثالث قبل الميلاد والثاني في موقع القصر الشمالي الذي يعود الى الالف الثاني قبل الميلاد ، والثالث في موقع القلعة المحصنة ، في الجزء الشرقي من القلعة نفسها ، ومن هذه المواقع اصبح لدينا صورة كاملة تخبرنا عن فنون العمارة في إبـــلا .

* نشر نص الحوار على صفحات جريدة تشرين السورية بتاريخ 1988/10/13 ، ص3 .



اجزاء من رقيم مسماري إبــلائي بعد الترميم والجمع .

. إعـادة ترتيب:

لدينا الان معرفة كاملة عن اعادة ترتيب وتنظيم تحصينات الاسوار ، وهذه تجربة فريدة من نوعها في منطقة شمال سورية، ويعود تاريخ هذه التحصينات الى الفترة الواقعة بين 1800 - 1600 قبل الميلاد. . . لدينا معابد جديدة، ولكنها مشوهة بعض الشيء ويعود تاريخها الى عصر الملك البابلي حمورابي 1792- 1750 قبل الميلاد، وكانت مخصصة لعبادة الاله ادد (حدد) اله المطر والعاصفة. . واكثر المكتشفات الحديثة اهمية عبارة عن تمثالين يمثلان اله بعل ، صنعا من حجر قاس Lime stone وهذا الاكتشاف يعبر عن افكار وطقوس دينية كانت سائدة في ذلك العصر، ويضاف الى ذلك مشاهد الاسد والنسر وهذا يرمز بشكل خاص الى تأثير العاصفة في بلاد الشام وبلاد مابين النهرين وشرق آسيا وهذه المكتشفات تدل ايضا على احراز نصر على الاعداء، وتماثل ماتم العثور عليه في بعض المواقع الاثرية من بلاد مابين النهرين ومدينة ماري الواقعة على الفرات الاوسط في سورية.

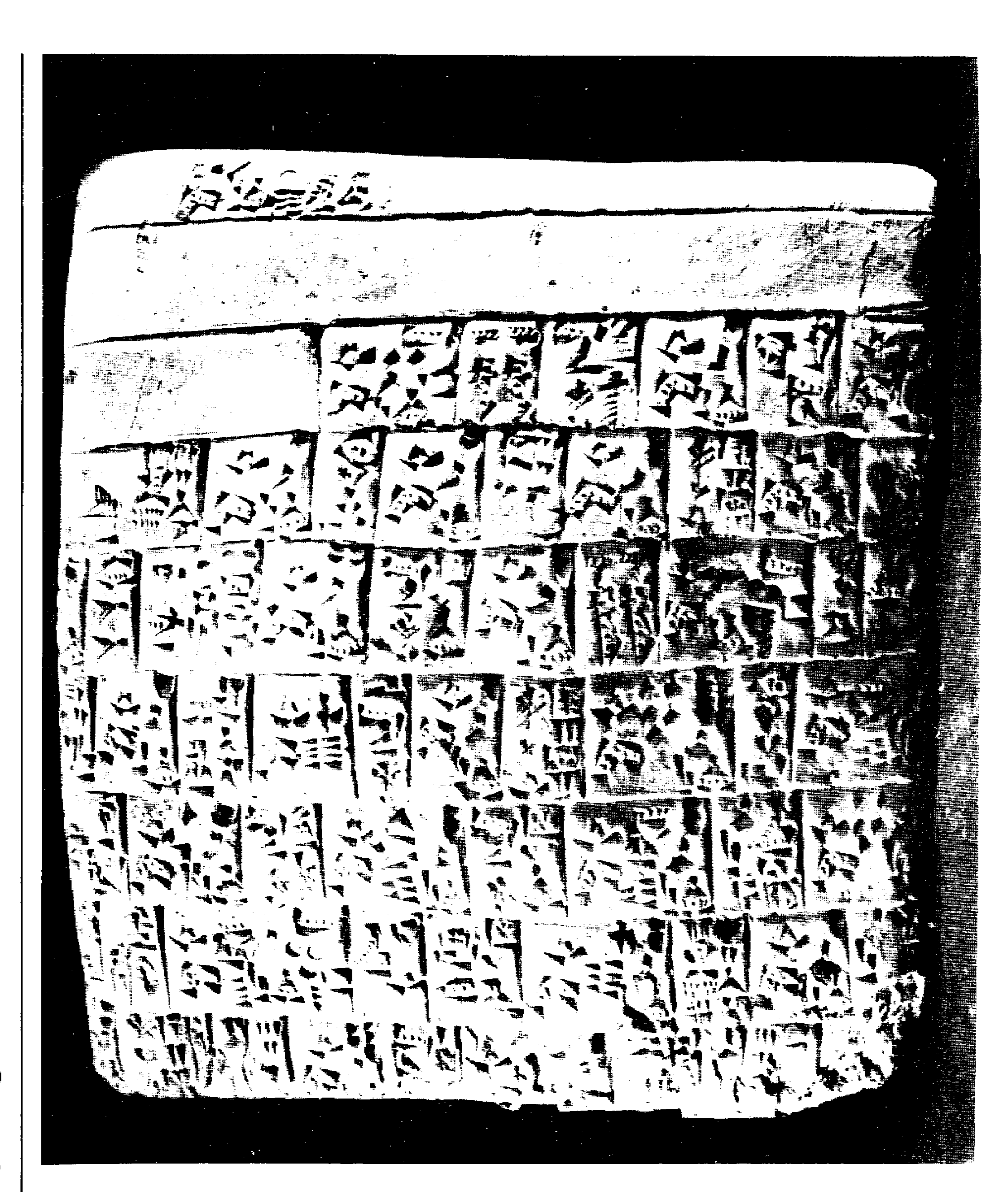
الاكتشاف الثاني الذي تم العثور عليه مؤخراً عبارة عن اثاث دقيق جداً صنع من العاج، يعبر عن رفاهية وتطور وصناعة متقدمة، تدل على ان ملوك إبــــلا في تلك الفترة، فترة حكم حمورابي (القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد) كانوا يحبون اقتناء العاج المزين بالنقوش النافرة. وهذه الاشكال التي عثر عليها ذات انماط مصرية بعضها يمثل الإله المصري (حورس) وبعضها الآخر ربما لملوك سوريين مع لمسات مصرية واضحة في الشكل والزي .

اهمية هذا الاكتشاف تتجلى بانه اول نتاج يصل الينا يمثل الصناعات العاجية في سورية قبل اكتشاف نماذج العاج المعروفة التي عثر عليها في اوغاريت /رأس الشمرة/ على الساحل السوري، ويعود تاريخها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، اي بعد زمن يتجاوز 400 سنة من اكتشاف إبــــلا، واقول بصراحة باننا لم نكن نتوقع مطلقاً العثور على مثل هذه المكتشفات المتقنة الصنع في مثل هذه الفترة الزمنية، وهي تختلف عن الصناعات العاجية التي اكتشفت في اوغاريت، لذلك فان الالواح العاجية المكتشفة في إبــــلا، يتم النظر اليها بكثير من الدقة والاهتمام .

● نود ان نسألكم عن اخر اخبار ترجمات الرقم المسمارية المكتشفة في إبــــلا ، والتي يتم قراءتها من قبل اللجنة الدولية لترجمة وقراءة رقم إبــــلا؟.

. ثمانية مجلدات:

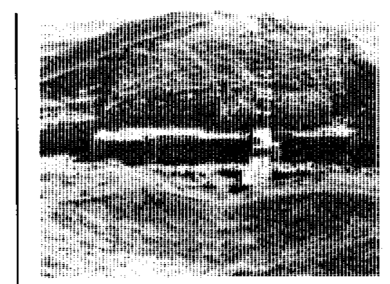
●● اخر اخبار هذه اللجنة التي تضم في عضويتها نخبة من خيرة علماء الآثار واللغات القديمة في العالم ـ انها قد انتهت من طباعة ثمانية مجلدات والعديد من المواد والمقالات الصحفية، مترجمة عن رقم إبــــلا، وهذه المجلدات والابحاث الهامة، محصلة لقراءة اكثر من الف ومئة قطعة من الرقم واربعمائة رقيم كامل. . . وقد تم نشرها في طبعات مختلفة، ولغات عديدة /ابطالية ـ انكليزية ـ فرنسية ـ المانية/ واقول بكل فخر واعتزاز ان العالم بفضل هذه المجلدات قد اصبح لديه فكرة واضحة وجيدة عن مضمونها ومحتوياتها، وبالمناسبة لابد من الاشارة الى الجهود الكبيرة التي تبذل لانجاز هذه الترجمات ، فالنشر الكامل لهذه النصوص يحتاج الى جهود كبيرة وعمل طويل، واعتقد اننا سوف نحتاج الى فترة زمنية تمتد من 10 الى 15 سنة من العمل المتواصل الحثيث.



رقيم اخر من آلاف الرقم المسمارية التي اسفرت عنها اعمال التنقيب الأثري في موقع إبــلا ـ تل مرديخ .

● ماهو برنامج عمل اللجنة في هذا العمل ؟!

●● البرنامج المخطط له لفريق العمل الايطالي ان يكون لدينا على وجه التقريب، في كل عام كتاب /مجلد/ جديد، عن ترجمات جديدة لنصوص مسمارية، واشير بانه يوجد لدينا باستمرار دراسات جديدة هامة تتعلق بعلوم اللغات الشرقية القديمة، ومن اكثر الاشياء امتاعاً في هذا المجال كان اكتشافنا لهجة محلية معقدة جداً، وصعبة، وقد توصلنا الى ذلك من خلال دراسة بعض النصوص المسمارية التي تتعلق ببعض الطقوس الدينية، واكثر ما يثير الدهشة ظهور قائمة باسماء خمسة عشر من ملوك إبــــلا، لم نتعرف عليهم سابقاً، وقد نشرت هذه الاسماء في المجلد السابع من سلسلة مطبوعات الارشيف الملكي لنصوص إبــــلا وتبدأ سلسلة هؤلاء الملوك بالاقدم عهداً وتنتهي بالاحدث عهداً، ويأتي تسلسلهم على الشكل التالي :



مشهد عام للاكروبول (قمة التل) وتظهر فيه اعمال التنقيب الأثري . (ت : مروان مسلماني) .

اركب دامو - اجريش حلم - ادوب دامو - كوم دامو - ايسار ملك - ان . ار . دامو - با . دامو - ابي دامو - اجور ليم - ابور ليم -.

ومن الملاحظ عدم اشتراك احد من هؤلاء الملوك مع غيره بالاسم والكنية وقد يعني هذا ان إبــلا لم تعرف النظام الوراثي، وبالتالي لم يكن ملوكها من اسرة واحدة، غير ان هناك استثناء واحداً يتعلق بالملك (ابي ذكير) الذي ورث العرش عن ابيه الملك (ايبريوم).

● هنا لابد من الاشارة الى دراسة العالم الاثري «الفونسوا - كي» حول هذا الموضوع حيث اشار الى ان كلمة (داموم) بالابلائية معروفة في اللغة الاوغاريتية، وتعني (شعب - جماعة) اما كلمة (داموم) في اللغة الاكادية فتعني (الرقم الالف) وعندما تستخدم تلك الكلمة في تركيب اسماء الاعلام، فانها تضفي الصفة الالوهية على الاسرة او الجماعة صاحبة الاسم، ولابد من الاشارة ان هذا النظام الاجتماعي في إبــلا، كان يستلزم وجود اساس حضري ثابت ومستقر وهذا ما اكد عليه الدكتور ماتييه، الذي تابع قوله :

نعم، ان هذا يعني ان إبــلا في سنة 2300 قبل الميلاد، كان لديها تقاليد مدينة متقدمة، لم تكن مختلفة عن التقاليد التي كانت موجودة في مصر في ذلك الحين، وبلاد مابين النهرين في مدن : اور، ونيبور، واوروك، وكيش وغيرها.

● اعتقد ان هناك بعض النصوص التي تتعلق مواضيعها بالادب، ماهو الجديد في هذا المضمار ؟!

●● من بين النصوص المسمارية التي نشرت ترجماتها منذ سنتين تقريباً نحو عشرين رقيم تتعلق مواضيعها بترنيمات حول الهة الشمس «شماش» ولكن هذه النصوص تبقى دون طموحاتنا الادبية، ونرجو ان تسفر التراجم القادمة عن نصوص اخرى تغني معلوماتنا حول هذا الموضوع .

. تجارة اللازورد:

● ما قصة حجر اللازورد في اكتشافات إبــلا ؟!

●● انها قصة طريفة ففي الهضبة الايرانية وافغانستان كانت تتوفر الاحجار الكريمة مثل اللازورد والعقيق والفيروز. . ويعتبر حجر اللازورد من القطع الثمينة ولا يتوفر الا في اماكن معدودة جداً، وكان معظم اللازورد المكتشف في المواقع الاثرية مصدره افغانستان لكن لم يتم العثور على اي قطعة خارج هذه الحدود في الشرق الاوسط حتى جاءت المكتشفات الاثرية التي تتم الان في إبــلا، وخاصة في القصر الملكي الذي يعود تاريخه الى الالف الثالث قبل الميلاد. . لقد كشف النقاب عن ادلة مادية جديدة لتجارة اللازورد وقد عثرنا في باحة الجناح الرسمي على عدة قطع لخامات اللازورد وقد بلغ الوزن الاجمالي للقطع الخام اكثر من 22 كغ ويتألف 30٪ منها من قطع تزن كل واحدة مابين 400 الى 600 غ وكانت معظم القطع مغلّفة بقشرة رمادية اللون، ولعل مرد ذلك الى ما خلفته عملية الاستخلاص وبالفعل كانت تجري في الماضي وحتى في الوقت الحاضر، اشعال النار في المنجم لاستخلاص اللازورد من فلزاته الصخرية وعندما تصبح درجة حرارة الفلزات عالية جداً، يجري

صب الماء البارد عليها، عندئذ تتشقق الفلزات الى قطع متعددة، وكانت هذه القطع تخضع لعمليتي الصقل والصياغة داخل الغرف الرسمية للقصر وكانت إبــلا تستخدمها في عمليات التجارة، فمن الحقائق الهامة التي تخبرنا عنها النصوص المسمارية ان اللازورد القادم من افغانستان كان يرسل من ماري /تل الحريري/ الى إبــلا مقابل سبائك الفضة، ونسبة المبادلة هي واحد الى واحد.

خلاصة القول، نستطيع ان نتصور بشكل عام حالة التجارة في اللازورد في إبــلا على ضوء الاوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في ذلك الزمان على الشكل التالي :

كانت إبــلا تحصل على الفضة من بلاد الاناضول، بينما لم تجد ماري اية صعوبة في الحصول على اللازورد من منطقة الدولة الاكادية، وكانت العلاقات بين إبــلا وماري جيدة بحيث يتم التبادل بينهما بنسبة واحد الى واحد على الرغم من القيمة العالية والنادرة للازورد وبالقياس الى معدن الفضة، وكان هذا الحجر يستخدم في زخرفة الاساس وصنع الحلي لكن الكميات الكبيرة التي تم العثور عليها في قصر إبــلا، تدعو الى الاعتقاد بانها كانت تصدره الى الخارج ايضا، لذلك فمن المرجح تماما ان يكون تجار إبــلا قد حملوا هذه المادة الثمينة الى المناطق الغربية اي باتجاه سواحل بلاد الشام ومن هناك كانت تشحن الى مصر حيث يشتد الطلب عليها.

. دراسات إبلائيــة جديدة:

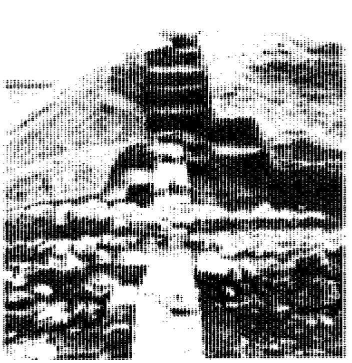
● في السنة الماضية، عقدت في روما ندوة عالمية للحديث عن مكتشفات إبــلا واهميتها الحضارية ما الجديد الذي قدم في هذه الندوة ؟!

●● قدمت في هذه الندوة موضوعات وابحاث ودراسات هامة، وكانت المحصلة اضافات، جديدة لتاريخ سورية القديم بشكل خاص، وتاريخ الشرق الاوسط بشكل عام الجديد الذي لفت النظر تلك الدراسات التي تطرقت الى موضوع علم الكتابات والنقوش القديمة (الايبوغرافيا) وخاصة ما يتعلق باسماء العلم وتركيب الاسماء الشخصية في إبــلا وخاصة اسماء الملوك والوزراء وعائلاتهم والتي استطعنا من خلال ترجماتها ان نتعرف على كثير من الامور المتعلقة بالحياة السياسية والمشاكل التي كانت تقع فيما بينهم وغير ذلك.

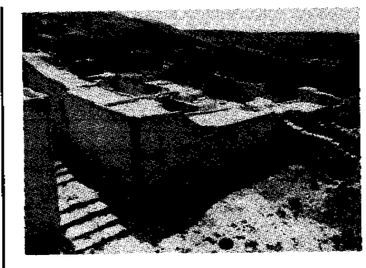
● من المعروف ان إبــلا من اكبر واضخم المواقع الاثرية في سورية، وباعتقادي اننا نحتاج الى اكثر من 100 سنة حتى تنتهي اعمال التنقيب فيها ومع ذلك نراك تقوم بأعمال تنقيب في التلال المجاورة لابلا، ما هي دوافع ذلك ؟!

. تنقيبات جديدة:

●● تعلم جيداً ان إبــلا كانت في الالف الثالث قبل الميلاد تسيطر على رقعة جغرافية واسعة المساحة، تمتد من حوضي الفرات والبليخ شمال شرق الى منطقة قطنة (تل المشرفة قرب حمص) جنوباً، ومن جبل الزاوية وجبال الامانوس وطوروس غرباً وشمالاً حتى بادية الشام شرقاً، والنصوص المسمارية المكتشفة في القصر (ج) تأتي على ذكر اعداد كبيرة من الاسماء (مدن وقرى) في المناطق الآنفة الذكر لكن القليل منها امكن التعرف على موقعه بين التلال الاثرية الكثيرة المنتشرة في



لقطة تبين الدرج الذي يؤدي الى قمة الاكروبول في إبــلا .



تلك البقاع لاسيما وانه من النادر جداً ان تتناقل الاجيال اسم المدينة او القرية على مر اربعة آلاف وخمسمائة سنة تقريباً، ومن خلال الاعمال التي قمنا بها في التلال الاثرية المجاورة لتل مرديخ (إبـــلا) امكن التعرف بدقة على اسماء بعض المواقع مثل : مورك ـ صوران (قرب حماة) ونيارس (شمالي سراقب) ويرد في نصوص إبـــلا اسم «دوجان» وهو قريب في لفظة من اسم (تل طوقان) الهام اثرياً والواقع في منطقة ابو الظهور شرقي إبـــلا، لذلك قمنا ببعض الاسبار والاعمال الاثرية في هذا الموقع الهام، نظراً لعلاقته المميزة مع إبـــلا، وسوف تهدف اعمالنا القادمة التعرف على الاسم الحقيقي لتل طوقان وخاصة في الفترة الزمنية التي كانت هذه المدينة هامة في العهد الآرامي في الالف الاول قبل الميلاد وهناك بعض الاحتمالات بان يكون التل يغيب في طياته آثار مدينة «حذريق» التي ذكرت في بعض النصوص الآشورية والآرامية التي يعود تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد وكانت هذه الحاضرة على علاقات وثيقة مع مملكة حماة، وملوك دمشق الآراميين وايضا مملكة حلب. . . كل هذا يقدم الدليل الذي يثبت اهمية الموقع الحضارية والتاريخية، لذلك قمنا بهذه الاعمال وكما ترى فانها تهدف الى توسيع معرفتنا بمملكة إبـــلا ولاشيء سوى ذلك مع ايماننا الاكيد بان إبـــلا مازالت تحتاج الى عشرات السنين من المواسم التنقيبية حتى تتمكن من اعطاء صورة كاملة عن حضارتنا الزاهية النادرة .

ومن خلال اعمال التنقيب في تل افس وطوقان وغيرها استطيع ان اؤكد لك باننا نملك ادلة مادية جيدة حول التتابع الحضاري في سورية الوسطى ويمتد هذا التتابع الحضاري منذ الالف الثالث والثاني والاول قبل الميلاد. . .

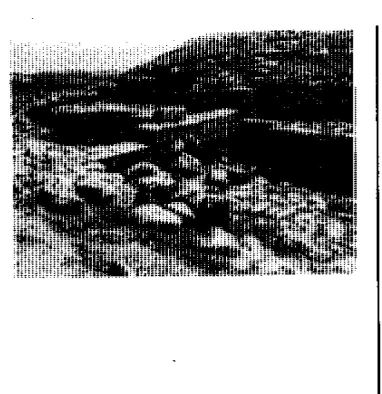
ـ إبـلا شهرتي :

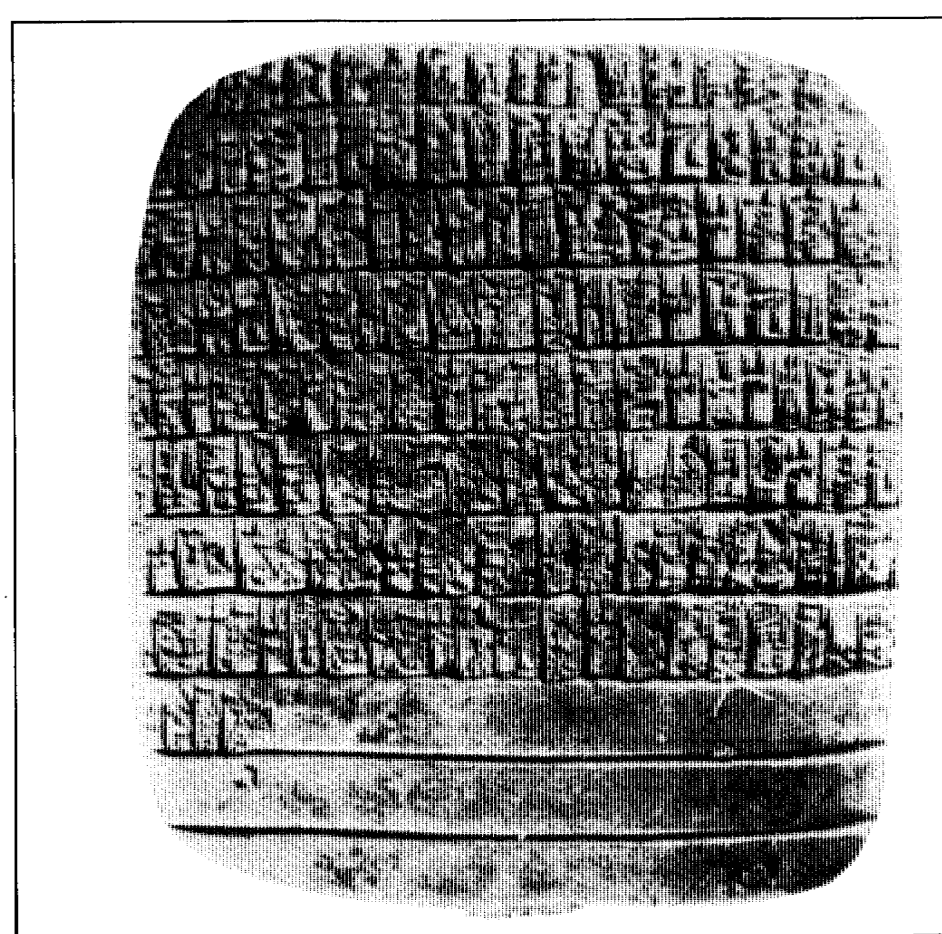
● يخطر ببالي السؤال التالي : لولا اكتشافات إبـــلا المدهشة، هل من الممكن ان يكون لباولو ماتييه هذه الشهرة الكبيرة في الاوساط العلمية والثقافية العالمية ؟!

●● سؤالك فيه بعض الحرج، انت تريد ان تعرف عن طبيعة العلاقة بين الموقع وشخصيتي. . . من السهل ان أرد على سؤالك بقولي : (إبـــلا في كل مكان من العالم اكثر شهرة مني، واسوق لك حادثة وقعت معي قبل قدومي الى سورية منذ حوالي الشهر : جمعتني الصدفة بشخص لا اعرفه كان موجوداً مع بعض الزملاء في جامعة روما، وعندما تم التعريف بمكتشف إبـــلا صرخ الرجل قائلاً : آه. . . باولو ماتييه!!! وهكذا كما ترى فان إبـــلا اكثر شهرة مني بالطبع.

● خلافاتك مع العالم الآثاري سباتينو موسكاتي، استاذ اللغات الشرقية القديمة وآدابها في جامعة روما من الامور المعروفة في الاوساط الاثرية والعلمية. ماسبب هذا الخلاف !!

●● ليس بيني وبين موسكاتي خلافات ترجع الى اسباب خاصة، الاختلاف فقط في وجهات النظر فيما يتعلق بحضارات وكتابات الشرق القديم، ان لدى موسكاتي بعض الافكار التي لاتلتقي مع افكاري، لكن هذا الخلاف لايعني انه على خطأ فالرجل من المتخصصين بالحضارة الفينيقية وله مؤلفات شهيرة عنها.





رقيم مسماري من إبـــلا.

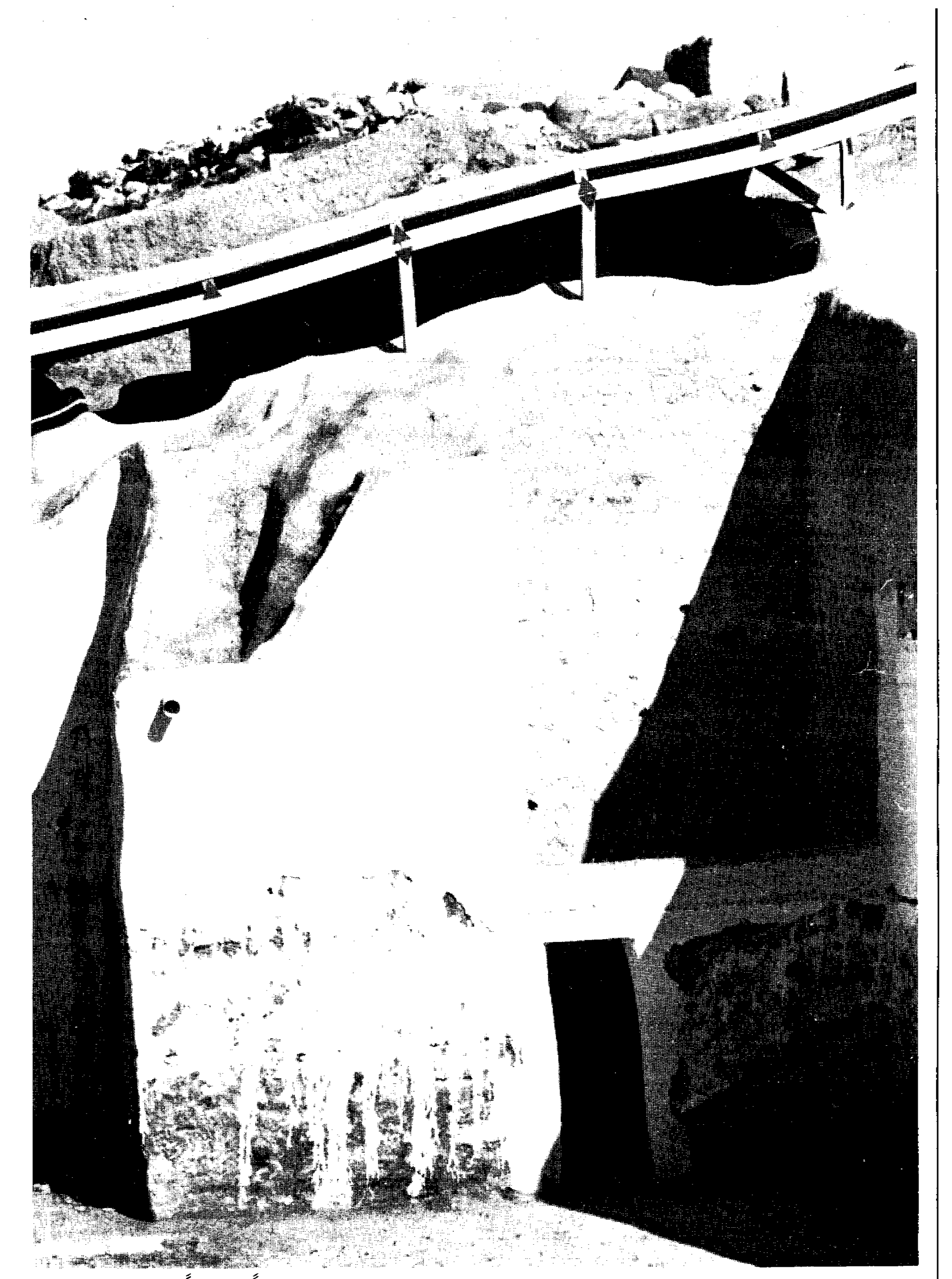
● برأيك ماهو مستقبل الدراسات الابلائية، وما تأثير هذه الدراسات على حضارة الشرق القديم ؟!

ـ ثورة متنامية :

●● عندما بدأت عملي في موقع تل مرديخ (إبـــلا) كنت على قناعة تامة بالاهمية القصوى للحضارة السورية التي تجسدت منذ بواكير الحضارة في كثير من المواقع الاثرية وقد سبق العمل في إبـــلا قيامي بدراسات موسعة عن حضارات المنطقة العربية القديمة، وكان جل اهتمامي ينصب على دراسة حضارة اوغاريت وآثار منطقة شمال سورية مثل موقع تل عطشانة (الالاخ) وبلاد مابين النهرين وهكذا وفق هذا المبدأ فان مهمتي اكبر مني، وقد استفدت كثيرا من اعمال العلماء السابقين لي.

نحن لدينا ـ الآن ـ مكتشفات من إبـــلا اعتبرها ثورة متنامية من العلوم والمعارف وبكل فخر اقول لقد اصبح العالم يعرف جيداً مدى اهمية الحضارة التي كانت قائمة في بلادكم واعتقد أن تطور الاكتشاف والعمل في إبـــلا سيتم بطريقة محددة ومدروسة تتوضح فيها اهمية بدايات حضارة إبـــلا في سورية في الالف الثالث قبل الميلاد، مع وجود اختلافات بسيطة في النواحي الثقافية والاجتماعية عن تلك الموجودة في بلاد مابين النهرين.

ونستشف من تلك الوثائق التي تعود الى الفترة الواقعة بين 2300 ق.م و 2250 ق.م ان إبـــلا على علاقات وثيقة مع منطقة جنوبي بلاد مابين النهرين ومن المؤكد ان إبـــلا في الفترة



اعادة بناء بعض الأبنية في إبـــلا وفق النموذج القديم.

السابقة كانت قد استعارت الكتابة المسمارية من منطقة كيش وتأثرت تأثراً شديداً باسلوب الكتابة واصول المراسلات الرسمية المتبعة في دواوين ومدارس إبـــلا اكاد ومن المؤكد ايضاً ان حضارة إبـــلا خلال الفترة نفسها بدأت تكون شخصيتها وتأخذ ابعادها المستقلة وتصبح الوجه المميز للحضارة السورية منذ ذلك التاريخ، وذلك استناداً الى قاعدة اجتماعية واقتصادية مغايرة لنظريتها الموجودة في جنوب الرافدين، فضلا عن وجود بنيان تأسيسي سوري الطابع وتطلعات دينية مرتبطة بتاريخ بلاد الشام المتأخر في هذه الفترة بالذات ترسخت اسس متميزة اصبحت بعد ذلك منطلقاً

للتطور الحضاري المتعاقب في بلاد الشام وهكذا فان إبـــلا اصبحت عاصمة مملكة قوية واسعة ذات تأثير فاعل في حضارات الشرق وهنا يكمن دورها وتأثيرها الهام.

• الوطن الأم:

● يلاحظ في السنوات الاخيرة الماضية، نوعاً من الاهتمام الخاص بتاريخ الشرق القديم في مختلف دول العالم برأيك ما هو سبب الاهتمام ؟!

●● اعتقد ان سبب هذا الاهتمام يعود الى امور عديدة اهمها : ان مناطق الشرق القديم كانت منطلق اكثر التطورات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية عراقة وابداعاً وخلقاً. . . فهنا كانت بدايات الثورة النيوليتية التي حملت بدايات الزراعة (الحبوب والقمح) ومن هنا من مناطق سورية ووسط الاناضول وبلاد مابين النهرين حدثت الثورة الاجتماعية الثانية التي تجلت بصورة اساسية بتأسيس المدن وتطور المدينة وبالطبع يجب الا ننسى ان منطقتكم كانت مهد الديانات العظيمة للاجناس البشرية. . . .

اذن من اجل هذه العوامل الاجتماعية والاقتصادية والحضارية والدينية والروحية فان الشرق الادنى يشكل بما يعرف بالوطن الام للعديد من الحضارات وهذا هو السبب الحقيقي للاهتمام بتاريخ هذه المنطقة من العالم دون غيرها من المناطق. . . . لا انكر انه قد يكون هناك اسباب سياسية تخدم المدرسة التوراتية، او تطور علم الآثار في اسرائيل ان هذا الموضوع يختلف تماما ولا يشكل شيئاً امام الاسباب الحقيقية التي ذكرتها لك.

● هنا يخطر لي ان أسألك عن علاقات إبـــلا مع جنوبي بلاد الشام وفلسطين ؟!

●● هذا الموضوع انتهى الحديث فيه منذ سنوات مضت فقد ثبت خطأ القراءات لبعض نصوص إبـــلا، وتبين ان المدن الواقعة الى الجنوب من منطقة إبـــلا، التي يرد ذكرها بصورة مؤكدة في نصوص إبـــلا لا تتعدى حدود منطقة قطنة القديمة (تل المشرفة القريب من حمص) اما المدن التي قيل انها موثقة في نصوص إبـــلا مثل : القدس وغزة وشكيم والسامرة فقد تبين ان لا صحة لمثل هذا الادعاء كذلك لم يعثر على ذكر لاي من المدن التوراتية مثل : سوروم وعمورة، فالافتراضات الناتجة عن دوافع سياسية والتي استندت الى قراءة خاطئة للنص المسماري لا اساس لها من الصحة، كما انها مرفوضة علمياً رفضاً قاطعاً.

● لو سألت باولو ماتييه عن اسعد لحظات حياته ماذا يقول في ختام هذا الحوار ؟!

●● اسعد لحظات في حياتي، لاشك تلك اللحظات التي وجدت نفسي وجها لوجه امام اعظم اكتشاف اثري في القرن العشرين. . . يوم وجدت نفسي امام ارشيف المكتبة الملكية التي تتألف من عدد من الالواح الطينية المكتوبة بخط مسماري. . لقد كانت مرتبة على رفوف خشبية بصورة دقيقة، تلك الالواح التي اضافت صفحات جديدة كل الجدة الى تاريخ سورية والشرق الاوسط والانسانية في النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد. . . انها لحظات لا تتكرر في حياة عالم الآثار، ولذلك فهي اسعد لحظات حياتي.

الملحق

ابــلا فـــي الموسـوعات العالميــة

احتلت مكتشفات إبــــلا (تل مرديخ) في السنوات القليلة الماضية حيزاً هاماً على صفحات كبريات الموسوعات العالمية، وقد أضيفت في الطبعات الجديدة لهذه الموسوعات باعتبارها من الأحداث التاريخية والأثرية المدهشة في حضارة الشرق القديم في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وحرصاً منّا على تعريف القارىء العربي بأهم ما ذكر عن إبــــلا في تلك الموسوعات، أعددنا هذا الملحق .

الناشـــــر

ENCYCLOPEDIA AMERICANA

(الموسوعة الامريكية)

عدد الاجزاء 30
الجزء التاسع
ص ص.570-571 فقرة Ebla .
طبعة 1987 ـ الولايات المتحدة .

إبلا ، مدينة سورية قديمة ، تعرف اليوم بتل مرديخ ، تقع على بعد 34 ميلاً (55 كم) إلى الجنوب الغربي من حلب . ومع بدء التنقيبات عام 1964 ، كشف علماء الآثار الإيطاليون عن مستويات مسكونة تعود إلى حوالي 2900 ق.م . (العصر البرونزي I) حتى العهود البيزنطية (مرديخ VIII) . ويعتبر مستوى مرديخ IIBI ، بقصره الملكي (القصر G) وسجـلاته الجصيـة المسماريـة ، أهم هـذه المستويات .

تظهر الوثائق والرسائل الإبلائية العديدة بأن عدد سكانها قد بلغ 250.000 نسمة وبأنها تزعمت دولة يقوم على إدارتها 12.000 موظف ، وبأنها تمتعت بتجارة واسعة وطموحات اقليمية . وقد شكل توالي أوائل حكامها ـ إغريش ـ حلَمْ ، إرْكب ـ دامو ، تمرْ ـ إنّوم أبريوم ، إبّي ـ زابيش ، و دُبُخو ـ أَدَه ـ أسرةً ملكيةً لعلّها دامت من حوالي 2400 حتى 2250 ق.م ، رغم أن التواريخ غير محددّة بدقة بعد . وربما كان الحريق الهائل الذي دمّر مرديخ IIBI قد تم على يد نارام ـ سن الأكادي الذي كان يفاخر بتدميره إبلا . ومع أن المدينة أعيد بناؤها وازدهرت بين 2000 و 1800 ق.م . (مرديخ III A) ، فإنها لم تستعد أبداً سالف مجدها . على أن معظم التحصينات والمعابد المكتشفة تعود إلى هذه الفترة .

سادت إبلا على أراض واسعة قريبة منها ، لكن الحدود القصوى لسلطانها صعبة التحديد . فقد امتدت أحياناً حتى الفرات عند كركميش إلى الشمال الشرقي وحتى ماري (تل الحريري) إلى الجنوب الشرقي . وكان ملك ماري إبلول الثاني (مع أن تاريخ حكمه غير معروف) معاصراً لـ عزْ ـ إنّوم ملك إبلا . وقد جعلت السيطرة على طرق القوافل عبر هاتين المدينتين وإلى الغرب حتى الساحل السوري وجبال طوروس من إبلا مركزاً تجارياً هاماً ، وبخـاصة لتجـارة الأقمشة ، محليـة الصنع والمستوردة . ويختص جانب كبير من السجلات بتجارة الأقمشة ، مع أن بيانات خاصة بالزراعة وبإدارة دوائر المدينة كانت تحفظ أيضاً .

لقد ظل الاعتقاد بأن العموريين نصف الرحل كانوا أول الأقوام التي استوطنت سوريا حوالي 2000 ق.م. سائداً ، حتى اكتشاف أن سجّلات إبلا دوّنت بلغة سامية قديمة (تعرف اليوم بالإبلائية أو الكنعانية القديمة) . وتشير نصوص إبلا إلى أنه كان يقطن سوريا مجتمع ساميّ متمّدن ومتقدّم حضارياً في فترة تعود إلى منتصف الألف الثالثة ق.م .

وقد أعلن في البدء عن النصوص الميثولوجية وغيرها بصورة واسعة بوصفها تلقي ضوءاً على الأصول العبرانية والأجواء التوراتية . لكن إعادة التقويم أظهرت بأن معظم الأساطير الإبلائية تُرجمت عن الأساطير السومرية وبأن الديانة كانت عموماً سورية ، تمركزت حول عبادة آلهة المحصول (داغان) ، الشمس (زابيش) ، الطاعون (رَشف) ، والحب (عشتار) . ومع أن عدداً من المختصين يزعم بأن مدناً فلسطينية هي المدن المذكورة في النصوص التجارية ، فإن الصلة الوحيدة ذات المغزى مع التوراة صلة لغوية . فالإبلائية تنير عدداً من النصوص العبرية العويصة .

وليم كَلِكان ، جامعة ملبورن

ترجمة الأستاذ ديمتري افبيرنيوس

مراجع :

Matthiae, Paolo, Ebla, an Empire Redicovered (Hodder and Staughton 1980); Pettinato, Giovanni, The Archives of Ebla: An Empire in Clay (Doubleday 1981).

ـ إبلا ، امبراطورية يعاود اكتشافها .
ـ سجلات إبلا ، امبراطورية في الطين .

The New Encyclopedia Britannica

(الموسوعة البريطانية الجديدة)

عدد الاجزاء 29+5
شكاغو 1985
الجزء الرابع
الطبعة 15 .
ص ص.344-345 فقرتان Ebla -
- Ebla Language

إبلا ، وهي تل مرديخ اليوم ، مدينة قديمة واقعة على بعد 33 ميلاً (53 كيلومتراً) إلى الجنوب الغربي من حلب في شمال غربي سورية . هيمنت إبلا ، وهي في أوج قوّتها (حوالي 2600 - 2240 ق . م .) ، على سورية الشمالية ولبنان وعلى أجزاء من شمال بلاد الرافدين (العراق اليوم) ونعمت بالتجارة وبالعلاقات الدبلوماسية مع دول بعيدة كمصر وإيران وسومر .

بدأت التنقيبات في التل ، الذي يعرف اليوم بموقع إبلا ، عام 1964 مع قدوم فريق من علماء الآثار من جامعة روما برئاسة پاولو ماتييه Paolo Matthiae . وفي عام 1975 عثر فريق ماتييه على سجلات إبلا التي تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، والتي تم اكتشافها سليمة عملياً ، ومحافظة على الترتيب الذي أودعت وفقاً له رفوفها المنهارة اليوم . إن هذه الرقيمات والقصافات التي يبلغ عددها 15,000 تزودنا بمصدر غني من المعلومات عن إبلا .

يعود جانب من الفضل في ازدهار إبلا إلى أراضيها الزراعية الواقعة في سهول شمال سورية الخصبة حيث كان يزرع الشعير والقمح والزيتون والتين والعنب والرمان والكتان ، وحيث كان يربى البقر والأغنام والماعز والخنازير . فضلاً عن ذلك ، كانت إبلا تسيطر على مجموعة من 17 مدينة ـ دولة أغلب الظن أنها كانت واقعة في لبنان وفي تركيا الجنوبية الغربية اليوم ، وهما منطقتان غنيتان جداً بالفضة والأخشاب . أما المدينة نفسها ، فقد كانت مركز تصنيع وتوزيع ، وكان الكتان والصوف ، بما في ذلك قماش الدمسق ، المنتوجات الرئيسة . أما تصنيع المعادن ، بما في ذلك صهر وخلط الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص ، فكان ثاني النشاطات أهمية . وأما تصنيع الخشب وإنتاج زيت الزيتون والخمر والجعة فكانا هامين أيضاً .

كانت التجارة الدعامة الثالثة لاقتصاد إبلا ، فكانت الأقمشة والبضائع المصنّعة وزيت الزيتون صادراتها الرئيسة : أما الواردات فقد كانت تضم الذهب والفضة والنحاس والقصدير والأحجار الكريمة والأغنام . وقد أثرت إبلا نتيجة موقعها الجغرافي بفضل تجارة الترانزيت ، فكانت البضائع

تنقل عبرها من إيران والأناضول وقبرص إلى دول بعيدة كسومر ومصر ، حيث كانت التجارة المصرية تمر عبر بيبلوس .

وقد دعمت المفاوضات والحروب المحدودة نشاطات إبلا التجارية . فقد ارتبطت بها إيمار (مسكنة) ، وهي مدينة متوضعة استراتيجياً عند التقاء نهري الفرات والبليخ ، بزواج ملكي . أما خمّازي فكانت حليفة إبلا التجارية والسياسية في إيران . كما عقدت اتفاقيات تجارية مع مدن أخرى . وأما ماري ، الواقعة على الفرات إلى الجنوب الشرقي ، فقد كانت منافسة إبلا الأولى تجارياً . وقد زحف الجيش الإبلائي عليها مرتين ، وسادت عليها لفترة ما عبر حاكم عسكري .

حكم إبلا ملوكُ حكماً غير وراثي لمدد محدودة ، وكان مجلس للشيوخ يشارك في اتخاذ القرارات . أما تصنيع الأقمشة فكانت الملكة تتولى الإشراف عليه . وكان أربعة عشر حاكماً يعينهم الملك يحكمون مقاطعات إبلا ، إثنان منهم في المدينة نفسها .

كانت ديانة إبلا قائمة على تعدد الآلهة وكنعانية في المقام الأول ، فكان دابر هو الإله راعي المدينة . بيد أن دجن ، زابيش ، حدد ، بلاطو وعشتار كانوا معبودين أيضاً . وقد كانت لغة إبلا لهجة كنعانية ، ظلت مجهولة حتى يومنا هذا ، شبيهة باللغات السامية الشمالية الغربية . غير أن الكتابة على الرقيمات كتابة مسمارية سومرية ، شديدة الشبه بالرقيمات من أدَبْ وأبو صلابيخ (العراق اليوم) . وتشير النصوص إلى أن معلمين سومريين قدموا إلى إبلا ، ويشهد وجود «قناة إبلا» قرب أدب على مضي الإبلائيين إلى سومر أيضاً . ومن جهة أخرى ، تؤكد المفردات وجداول المقاطع اللفظية والمعاجم الجغرافية بأن إبلا كانت مركزاً ثقافياً هاماً . إن سلامة النصوص الإبلائية التي تطابق في عدد من المواضع نصوصاً سومرية متفككة سوف تساعد الدراسة الحديثة للغة السومرية .

لفت ازدهار إبلا انتباه الأسرة الأكادية (حوالي 2350 - 2195 ق . م .) . ومع أن ادعاء صارغون الأكادي قهر إبلا بات موضعاً للشك بعد التنقيبات ، فأغلب الظن أن النار التي دمّرت المدينة كانت هجوم قام به حفيد صارغون نارام ـ سن (حوالي 2240 ق.م.) . وبعد فترة من الفقر دامت 250 عاماً ، قامت جماعة عمورية بنهب إبلا ووطدت حكم أسرتها . وقام العموريون بإعادة بناء القصر وأحد المعابد ، كما تم العثور على تمثال يمثل أحد ملوكهم بين الأنقاض . ولم تتمتع إبلا بعد ذلك إلا بازدهار محدود ، ويشير صولجان منقوش من العظم للفرعون حتپ ـ إب ـ رع (حكم حوالي 1765 ق . م .) إلى تجديد العلاقات مع مصر . وقد جرى تدمير إبلا نهائياً إبان الانتفاضات الكبرى التي عصفت بـالشرق الأوسط حوالي 1650 - 1600 ق . م . ، لكن فنوناً وتقاليد عديدة نشأت في تلك المدينة استمرت حيّة في الثقافة السورية .

اللغة الإبلائية ، لغة سامية قديمة ، لعلّها أقدم اللغات السامية التي ظلت على قيد الحياة على نحو ذي بال ، تعود إلى الربع الثالث من الألف الثالثة ق . م . وبوصفها لغة سامية شمالية مركزية ، تنتسب الإبلائية إلى أسرة اللغات الحامية ـ السامية .

لقد قدمت التنقيبات الأثرية في أواسط السبعينات وثائق إبلائية مدوّنة على جانب كبير من الأهمية على هيئة رقيمات مسمارية وقصافات رقيمات كانت تشكل سجلاء دولة إبلا . وتنتمي كتابة السجلات إلى المسمارية التقليدية المتبعة في بلاد الرافدين . وتهيمن على اللغة لوغوغرامات* (رموز كنائية) الأمرالذي يشير إلى اتقان للسومرية بوصفها اللغة المهذّبة للطبقات المثقفة وإلى سمة مشتركة للمسمارية . أما من الناحية اللغوية ، فإن الإبلائية أقرب على وجه الإجمال إلى المجموعة الشمالية المركزية للغات ، ولا سيما العمورية والأكادية القديمة .

تشير المعلومات التي تقدمها السجلات عن نشاطات إبلا السياسية والثقافية ، والتي لا تزال في المراحل الأولى من التحقيق ، إلى أن الإبلائية كانت اللهجة الثقافية والإدارية للمركز السياسي لواحدة من أكثر المناطق السامية الشمالية الغربية تطوّراً . فبالإضافة إلى استخدامها كلغة محلية ، ربما كانت الإبلائية اللغة المثقفة المهيمنة على الشعوب المستوطنة في المنطقة حتى تدمير إبلا الذي تم على يد صارغون حوالي 2350 ق . م . أو على يد نارام ـ سن حوالي 2240 ق . م . وتظهر اللغة بوضوح أن تأثير إبلا الجغرافي كان لا يستهان به ، ويمتد شمالاً حتى المنطقة الحثية وجنوباً ربما حتى مصر .

ترجمة الأستاذ ديمتري افبيرنيوس

★ اللوغوغراف ، رمز كتابي كناية عن كلمة أو عبارة .

Chronique de l'umanité

LAROUSSE

(أرشيف العالم «لاروس»)

عدد الاجزاء 1
السجلات السياسية لمملكة إبـــلا
شمال سورية، حوالي 2500 ق.م

إكتشاف مدينة إبلا القديمة [تل مرديخ حالياً] بالقرب من مدينة حلب السورية ، يحدث ثورة في المعلومات التي نمتلكها عن بدء تاريخ هذه المنطقة من العالم . فقد كان المعتقد قبل هذا الاكتشاف ، بأن الحضارة المدينية كانت قد تطورت في جنوب بلاد الرافدين ، وبأنها من هناك أخذت تشع إلى البلاد المجاورة وتفرض نمطها . ولكن بعد اكتشاف مدينة إبلا تبين أن الأمر لم يكن كذلك على الاطلاق ، وأن منطقة شمال سورية قد عرفت انطلاقة مدينية أصيلة .

تمتد مدينة إبلا على اكثر من مساحة خمسين هكتاراً ، يهيمن عليها ، من مكان مرتفع حصن وقصر ملكي ، ويحميها سور بيضوي الشكل له أربعة أبواب محصنة . تحتوي صالات القصر الملكي على إحدى أقدم المكتبات في التاريخ . كان هذا الموقع قد تعرض لحريق امتد حتى المكتبة ، فأكلت نيرانه الرفوف الخشبية التي كانت الرقم الفخارية منضدة عليها ، واحترقت الرقم أيضاً فقسي فخارها ، الأمر الذي حفظها سليمة . وعندما عثر عليها كانت لا تزال محافظة على الترتيب الذي كانت منضدة حسبه قبل أن تهوي الرفوف المحترقة التي كانت تحملها منذ حوالي 4500 عام ! تشكل هذه المكتبة شاهداً على لغة سامية كان المؤرخون قد نسوا حتى وجودها منذ زمن بعيد . كما تكشف عن وجود قوة سياسية هي مملكة إبلا ، امتدت سيطرتها من البحر الأبيض المتوسط حتى نهر الفرات ، وكانت الملكة فيها تلعب دوراً هاماً في الحكم إلى جانب الملك . عثر في هذه المكتبة على رسالة من ملك مجاور مرهوب الجانب ، هو ملك مدينة ماري ، يحذر فيها حكام إبلا من اية محاولة للقيام بمغامرة عسكرية ضده ، مذكراً بالانجازات الحربية لثلاثة من اسلافه .

ترجمة الأستاذ جورج أبو كسم

La Grande Encyclopédie LAROUSSE
(موسوعة لاروس الكبيرة)

عدد الاجزاء 20+3
باريس 1976
الجزء 19
الصفحة 11587 - 11588 .
فقرةالمدن السورية
في عصر البرونز القديم (2300 - 2000 ق.م)

تسمية هذا العصر في سورية بالبرونز غير دقيقة أبداً (لأننا لا نجد فيه إطلاقاً إلا النحاس) . على كل يتوافق هذا العصر في سورية مع حضارة استمرت مدة طويلة وكانت متجانسة في جميع أرجاء سورية ، ما عدا في المناطق المتاخمة للرافدين .

قبل نهاية الألف الرابع وبتأثير التزايد السكاني والنمو الزراعي بدأت المراكز الحضرية في كل المنطقة السورية تتطور من ضيع مستقلة لتصبح مدناً ومن ثم ممالك ـ مدن . كانت مدن سورية الشمالية أكثر أهمية ولكنها كثيراً ما تعرضت للدمار ولعمليات التسوية من إجل إعادة بنائها ، وفي بعض الأحيان قامت المدن الحالية فوق القديمة .... (صفحة 11587) .

في عصر تشكلت فيه دولتان كبيرتان احداهما في مصر والأخرى في بلاد الرافدين كانت سورية تعاني من تأخر التنظيم السياسي ، الأمر الذي أثار أطماع هاتين القوتين في الحصول على أخشاب الممر التجاري السوري ومحصولاته الزراعية بأسعار زهيدة . بعد محاولة الملك نعرمر (مؤسس السلالة الأولى في مصر حوالي 3200 ق.م.) للسيطرة على الجنوب الشرقي من فلسطين ، اقتصر الفراعنة اللاحقون على حملات اقتصاصية ضد التخوم الفلسطينية .... (الصفحة 11587-11588) .

أما في شمال سورية فقبل وبعد حملات ملوك أكاد الحربية (في القرنين 24 و 23 ق.م.) للوصول إلى غابة الأرز (جبال الأمانوس) وإلى البحر العالي (المتوسط) ، شكلت مدينة إبلا الواقعة على طريق تجاري رئيسي مركز مملكة ذات شأن . (كشف عن إبلا في تل مرديخ على بعد ٦٠ كم إلى الجنوب من حلب) .

تأثرت إبلا بثقافة جنوب الرافدين : فقد كان قصرها يستخدم اللغة الأكادية والكتابة المسمارية . وقام فنانوها بتكييف التقليد الفني السومري فولدوا تقليداً سيكون أحد مناهل الفن «السوري ـ الحثي» الذي سيزدهر في سورية والأناضول في الألف الثاني قبل الميلاد .

في الواقع لم يكتف الممر التجاري السوري بالقيام بدور سلبي ، فقد حمل تجاره ابتداءً في منتصف الألف الثالث ق.م. انتاجهم إلى أواسط الأناضول التي قامت بينها وبين سورية مبادلات ثقافية مثمرة . (صفحة 11588) .

ترجمة الأستاذ جورج أبو كسم

Encyclopédie de l'expression

عدد الاجزاء 10
الجزء 1
الفصل 13030 الصفحة 8-11
الطبعة 1984 باريس

.... سطوع التاريخ السومري يجب أن لا يتسبب في كسوف تاريخ بقية مناطق الشرق الأدنى .

ففي الشرق بدأ العالم الرافدي يقيم اتصالات مع حضارات نهر الهندوس ...

وفي الغرب أخذت تنمو حضارة مدينية في سورية وفلسطين ، غير انها كانت ما تزال تجهل الكتابة . ولكن يجب ذكر استثناء بارز تؤكده وثائق مدينة إبلا (تل مرديخ) التي تقع على بعد ٦٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب .

في نهاية عصر البرونز السوري القديم بين (2375 و 2250) ق.م . قدمت هذه المدينة مجموعة هامة جداً من الرقم (نصوص إدارية وسياسية وأدبية) تبين أنه لم يكن لهذه المدينة السومرية من سبب لتحسد ممالك ـ المدن السومرية .

ومع ذلك دمر (نارام ـ سن) حفيد (صارغون الأكادي) دولة إبلا في حوالي سنة (2250 ق.م) (صفحة 8) .

.... في عصر ملوك مدينة ماري كانت سورية مجزأة الى دول عديد لها شأنها . وكان أهمها دولة حلب التي لا يمكن الكشف عما في موقعها القديم بسبب ما يقوم فوقه من أبنيه تعود الى القرون الوسطى الميلادية . وعلى العكس من ذلك موقع مدينة إبلا التي كشفت عنها حفريات حديثة .

يرقى تاريخ إبلا إلى أواسط الألف الثالث ق.م . قدمت هذه المدينة قصراً وعدة معابد وأجراناً كبيرة مزينة بنحت نافر مواضيعه اسطورية وثقافية .

ازدهر في هذه العواصم السورية فن ملكي يعكسه بأمانة فن ذو أصالة كبيرة هو فن نقش المجوهرات . (صفحة 11) .

ترجمة الأستاذ جورج أبو كسم

Le grand atlas de l'archéologie
UNIVERSSALESSE
(الموسوعة الآثارية)

عدد الاجزاء 1
فصل : الشرق الأدنى القديم
فقرة : بزوغ سورية
في فجر الأزمنة التاريخية .

لقد كشفت الأبحاث الآثارية التي جرت في سورية بين الحربين العالميتين عن وجود حضارة مدنية مشرقة بشكل خاص على نهر الفرات الأوسط خلال العصر البرونزي القديم (الألف الثالثة ق م) مع حاضرة ماري Mari الشهيرة ، وخلال البرونزي الأوسط (بين عامي 2000 و1600 ق م) في سورية الداخلية ، وعلى الساحل مع مدن عصر السلالات العمورية (حلب Alep وقرقميش Karkemish وقطنة Qatna ...) ، ثم خلال البرونزي الحديث (بينْ عامي 1600 و1200 ق م) مع أوغاريت Ougarit المتألقة (رأس شمرا Ras Shamra) القائمة على الساحل .

وبعـد الحرب العـالمية الثـانية ، بيّنت الاكتشافات الدور الطليعي الذي لعبته المنطقة السورية في السيرورة التي قادت من مرحلة العصر الباليوليتي إلى نمط الحياة النيوليتية بين الألف الثانية عشرة والألف السابعة ق م (راجع الشرق الأدنى ما قبل التاريخ) . وبالمقابل ، فقد تكون لدى علماء الآثار شعور بأن سورية خلت من أي أية فعالية منذ الألف السادسة ، ومنذ الاعمار المنتظم لبلاد الرافدين . وفي الحقيقة ، كان هؤلاء العلماء يعاينون في ذلك الحين في بلاد الرافدين التطورات الحاسمة التي أدت فيما بعد إلى مرور المجتمعات القروية من النيوليتي إلى المرحلة المدنية في بدايات التاريخ . وهكذا فقد أدت ولادة أولى المدن ، مثل مدينة أوروك Ourouk ، إلى وضع «بلد النهرين» في الصدارة لفترة طويلة . والحق يقال إن التنقيبات التي جرت في سورية منذ خمسين عاماً ، لم تقدم أية علامات عن حياة محلية نشيطة خلال الألفين الرابعة والثالثة . كذا فإن الوقائع كلها كانت تدفع العلماء للاعتقاد بأن سورية كانت تلاقي مشقة كبيرة في الخروج من العصر النيوليتي ، في حين كانت سومر Sumer في أوج جبروتها .

وفي بادىء الأمر ، تمّ اكتشاف منشآت من النمط السومري على ضفاف نهر الفرات عند أقصى أجزائه الغربية من الانعطاف الذي يرسمه النهر عند دخوله سورية . وعند النقطة التي يتجه فيها نحو بلاد الرافدين . فلقد استدل فريق ألماني (هينـريش E. Heinrich وشـــترومنـــغـــر E. Strommenger) في حبوبة كبيرة Habouba Kabira على الضفة اليمنى من النهر ، وفريق بلجيكي (فينيه A. Finet) في تل قناص Tell Qannas ، بل وكشفا جزئياً ، عن تجمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنهر بفضل موقعه وتنظيمه .

ثمة ثلاث وقائع هامة علينا أن نشير إليها ههنا . أولاً يستند المستوى الذي اكتشف مباشرة على أرض غير مزروعة أو مسكونة سابقاً ، ويسمح لنا المخطط بالاعتقاد أن التجمع عبارة عن انشاء مقصود ومنظّم يرجع إلى 3400 عام أو إلى 3300 عام ق م . وهنالك ثانياً المواد المكتشفة : فتنظيم المنازل وزخرفة المعـابد والخـزفيات وأدوات الحيـاة الاقتصادية والرسم ، ذلك كله يحمل علامة مدينة أوروك . لذا يجدر بنا ألّا نتحدث ببساطة عن عملية تأثير ، بل عن عملية نقل لهذه اللوازم دون شك . وأخيراً هنالك الأختام الأسطوانية داخل هذه المنازل مما يشير إلى أهمية الحياة الاقتصادية المرتكزة على التبادلات التجارية .

كذا فإن النتيجة التالية تفرض نفسها : إن حبوبة كبيرة هي منشأة من النمط الاستعماري أسسها سومريون ينتسبون ربما لمدينة أوروك ، وكانت وظيفتها الأساسية هي تأمين المسير النهري للمنتجات الضرورية جداً ، كالخشب والحجر ، والتي كان البلد السومري محروماً منها تماماً . وكانت بضائع أخرى ترافق هذه البضائع الوازنة والتي تعلل سبب اقامة المدينة على ضفة النهر . وتنتج عن ذلك نتيجة أخرى ، إذ طالما أمكن لمدينة من هذا النمط أن تولد ، فهذا يعني أن الوضع الداخلي في سورية كان يسمح بذلك : وبالتالي فإن هذا يشير إلى عدم امكانية تطور أية قوة مماثلة لقوة أوروك في ذلك الحين في سورية . ولكن فضلاً عن ذلك ، فإنه من الجلي والثابت أن سورية كانت قد دخلت سابقاً في تبادلات الشرق الأدنى الاقتصادية ، وإنشاء مستعمرة فيها يثبت تماماً حاجات سومر من السلع ، كما ويثبت اشتراك مناطق مختلفة في وحدة اقتصادية توزَّع فيها بعض البضائع . وتسمح لنا هذه الوضعية بالذات أن نفهم كيف أمكن لسورية أن تصبح خلال الألف التالية أرض مملكة قوية . وأخيراً فقد ظهر بوضوح الدور الفعال لنهر الفرات في السياق التطوري للشرق الأدنى .

ويبدو أن حبوبة كبيرة لم تدم لفترة طويلة ، إنما لقرن من الزمان فقط . وذلك لأن حريقاً وضع نهاية لوجودها . إلّا أن الاستكشافات والتحريرات الجارية في تل عروضة Tell Arouda ، الواقع على الهضبة على بعد عشرة كيلومترات تقريباً من حبوبة (تقوم بها بعثة هولندية على رأسها فان دربيل G. Van Driel) ، تظهر أن الأمر لا يتعلق بظاهرة مفردة .

ترجمة الأستاذ موسى الخوري

Encyclopedia Of Historic Places

عدد الاجزاء 2
المؤلف : Courtlandt Comby
الجزء الأول
طبعة لندن 1984 .
ص 264 فقرة Ebla

إبلا (سورية) موقع أثري ، يعرف محلياً بتل مرديخ ، يبعد حوالي 30 ميلاً إلى الجنوب الغربي من حلب . كشفت التنقيبات في الستنيات والسبعينات عن حاضرة قديمة لثقافة سامية كنعانية إزدهرت بين 2400 حتى 2000 ق.م . بقيت مجهولة حتى اليوم . لقد كانت المدينة الدولة ذات يوم ، بسكانها الذين يربو عددهم على 260.000 نسمة ، تسيطر على معظم سورية نزولاً حتى فلسطين وشرقاً حتى ماري . وقد كانت مملكة تجارية ، تديرها بيروقراطية معقّدة ، وملك منتخب يسنده مجلس للشيوخ . دمرت مدينة العصر البرونزي الأول حوالي عام 2250 ق.م ، على يد نارام ـ سِنْ الأكادي . وبعد تدمير ثانٍ عام 2000 ق.م. ، يحتمل أن يكون قد جرى على يد العموريين ، حُصّنت المدينة وازدهرت من جديد في العصر البرونزي الوسيط . وأخيراً محاها الحثيون حوالي عام 1600 ق.م. عثر عام 1975 على سجلات تضم أكثر من 15.000 رقيم طيني مدونة بالمسمارية في أنقاض القصر ، تلقي الكثير من الضوء على إدارة المملكة وأدابها .

ترجمة الأستاذ ديمتري افبيرنيوس

Archéologie

(الآثـــاريـــة)

الترجمة الفرنسية الصادرة
عن دار Fernand Nathan للنشر
طبعة 1980 باريس
الصفحات 405-416 .

الوضع السياسي (في سورية) (2400 - 2250) ق.م

في نهاية العصر الذي بلغ فيه انتشار الخزف الأسود المطلي بالميناء أوجه، نشهد تبدلاً ثقافياً يعم أرجاء سورية الشمالية، ولكن من دون ان يحدث انقطاع . فحيث كان، في التجمعات الحضرية الكبرى كما في المراكز الريفية، يمكننا تتبع ظاهرة تتمثل في تزايد انحسار الخزف المطلي بالميناء وفي انتشار مداهم وغزير لخزف كأسي الشكل مغضن السطح الخارجي، يعطي هوية خاصة لعصر البرونز السوري القديم الرابع (بحيرة العمق ا) ممتداً حتى فلسطين. يبدو ان هذه الحقبة تتميز بتبدل جذري في النماذج السياسية السائدة، الممثلة الى حد ما وفي كل مكان بشكل المدينة ـ الدولة او المملكة ـ المدينة التي تقوم على مساحة متفاوتة الاتساع. يقود هذا التبدل تدريجياً الى تشكل دول اكثر اتساعاً، وذلك نتيجة جهد لوغال زاغيزي في بلاد الرافدين وتوسع إبلا في سورية.

جلي أن مثل هذه العملية التطورية الثورية، التي تحرضها بشكل جوهري مصالح اقتصادية، لاتتحقق دون نتائج ثقافية. فمن المؤكد ان العمل الموحِّد للكيانات الوطنية الجديدة يتسبب في تسوية التقاليد الثقافية المحلية المختلفة والمتنوعة ويؤدي الى توحيدها، كما ينتج عنه توسع حدودي يترجم واقعياً بانتشار نوع من الخزف، كالخزف الكأسي الشكل، يعم بثبات في اقاليم غدت الآن موحدة.

يمكننا من الآن فصاعداً تتبع النمو التدريجي لهذه العملية التطورية الجوهرية، ليس فقط في بلاد الرافدين وانما في سورية ايضاً، وذلك بفضل الاكتشاف الحديث للسجلات الملكية في مدينة إبلا المتعلقة بهذا العصر، والتي تؤكد بوضوح ان نقطة انطلاق تطور نظام الدولة هي حصراً نقطة انطلاق تجارية ـ اقتصادية. قوام هذا المنطلق هو في الحقيقة السيطرة على بعض الطرق التجارية الرئيسية التي يظهر ان مدينة إبلا شكلت عقدتها في ذلك العصر، فقد كانت تمر عبر هذه المدينة السورية طرق المواصلات الحيوية لمبادلات الفلذات المعدنية والاخشاب بين الاناضول وفلسطين وشاطىء الفرات وبالتالي بلاد الرافدين، العملية التطورية التي تقود منذ عصر البرونز الثالث الى ان يتكون في المدن مركز سياسي متين لكنه محدود المساحة اقليمياً، لا تختلف اذن عن تلك العملية التطورية التي مهرت بطابعها مراكز مثل مدينة ماري وتل خويرة، في حين ان الانطلاقة السياسية التي اعقبت ذلك والتي توجب ان تقود الى اقامة نظام دولة وطنية، انطلاقاً من نفس الأسس، هي ثمرة سلسلة من الظروف المواتية التي تميز قَدَر هذه المدن عن قَدَر غيرها من مراكز الفرات.

في الواقع، بينما يظهر النظام الاقتصادي لهذه المراكز الاخيرة متعلقاً حصراً بنظامها التجاري القائم في اغلب الاحيان على دورها كموانىء تجارية، نجد على العكس من ذلك ان ازدهار مدينة إبلا الاقتصادي لا يقوم فقط على دورها كوسيط تجاري، وانما على شرطين اقتصاديين طبيعيين، هما السببان الاوليان لاستقرار وديمومة نظامها الاقتصادي. العامل الجوهري لهذا النظام يتشكل من تصدير الاخشاب الثمينة من الارز والسرو والصنوبر والتنوب، الذي يسيطر عليه نظام احتكاري، وخاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار ان بلوغ هذه المنطقة اكثر سهول بكثير من بلوغ الأناضول بالنسبة الى بلاد مثل مصر والرافدين، وأنها المنطقة الوحيدة للتزود بهذه الاخشاب التي تدين لها سورية بثروتها الاقتصادية خلال فترة طويلة من الألف الثاني قبل الميلاد.

اما العامل الاقتصادي الايجابي الثاني فهو الخصوبة الطبيعية لكل المنطقة التي تتوسطها مدينة إبلا، والممتدة غربا حتى نهر العاصي وشرقا الى سبخة الجبول وحتى نهر الفرات. لهذه المنطقة اهمية جوهرية للحيوية الاقتصادية للمدينة بما تشكله، في تلك الحقبة على الاقل، من خط اتصال مع طريق الفرات وبالتالي مع بلاد الرافدين.

يتحقق صعود إبلا السياسي في ظل حكم مليكها إغريش حَلَم وإركَب دامو، أول ملكين من السلالة التي تنتمي اليها وثائق القصر الملكي. ولكن أول توسع حربي جرى، على مانعلم، في ظل حكم أر ـ اينوم ثالث ملوكها، كما تنبئنا به التقارير المسهبة التي ارسلها (إنا ـ دجن) قائد الحملة ضد مدينة ماري التي كانت تحت حكم إيبلول الثاني، هذه الحملة التي اسفرت عن استيلاء (إنا ـ دجن) عليها ولقب نفسه بملك ماري. ماورد في هذه التقارير من ذكر بعض مستعمرات إبلا التجارية الواقعة على الطريق المؤدية الى مدينة ماري، والبيان المفصل عن الأتاوة الضخمة التي دفعتها المدينة المهزومة الى إبلا، يكشفان بجلاء الدوافع الاقتصادية الحقيقية لهذه السياسة التوسعية.

اذا تفحصنا تسمية ملك ماري وأشور التي استخدمها (إنا ـ دجن) للأشارة الى إيبلول الثاني، ربما رأينا فيها دليلًا على السلطة السياسية الواسعة جداً التي كانت تتمتع بها مدينة ماري في نهاية عصر ماقبيل السلالات على الطرق التجارية في منطقة الفرات الاعلى، وهذا يساعدنا على تفهم ان الحملة التي قامت بها إبلا للاستيلاء على مدينة ماري كانت بغية إزالة عقبة كبيرة تقف في وجه تجارتها المباشرة مع بلاد الرافدين.. الاستيلاء على ماري من جهة والتفوق السياسي الحقيقي من جهة اخرى على بعض المدن مثل كانيش في الأناضول وربما ايضاً على مدينة أكاد نفسها في بلاد الرافدين، هذا اذا ماكان ذكر هذه المدن في لائحة المدن «التي هي بين يدي ملك إبلا» هو موضع ثقة، كل هذا يعني ان السيطرة التي ستمارسها إبلا من الآن فصاعدا على اكثر الطرق التجارية أهمية تعادل احتكارا تجاريا مركزيا واسع النطاق.

لتوفير استقرار وأمان هذا الاحتكار التجاري عقدت إبلا سلسلة من المعاهدات الاقتصادية مع آشور وكركميش وحرّان وكيش وبيبلوس لتدعم عملياً مركزها السياسي والاقتصادي.

لهذه الظاهرة نتائج خطيرة على اقتصاد الممالك ـ الدول السومرية السائرة في طريقها الى التوحد.. في الواقع عندما تمت هذه العملية التطورية وعندما أتم (صارغون الاكادي) فتح بلاد الرافدين بكاملها، كان القسم الأكبر من الغرب (أي سورية) حتى مدينة ماري قد أصبح على الأرجح ملكاً سياسياً ـ او على الاقل احتكاراً تجارياً ـ لمدينة إبلا، الأمر الذي ينطوي على نتيجة مشؤومة على النظم الاقتصادية الرافدية، ألا وهي طردها من مناطق التزود بالمواد الاولية الأكثر أهمية، اي معادن الأناضول، وأخشاب سورية..

لإحتواء هذا التفوق الاقتصادي الابلائي، تدخل صارغون في سورية معلناً انه قد تسلم البلاد العليا وماري ويارموتي وإبلا من داغان الاله الاكبر في مجمع الآلهة السوري في الالف الثالث ق.م..

ومع ذلك لايظهر أن حملة صارغون هذه، التي ربما كانت لأسباب اقتصادية بشكل أساسي، قد نالت من قوة إبلا، التي استعادت ملكياتها المفقودة في الاناضول وشمال الرافدين في عهد ملكها إيبريوم المعاصر لأواخر سني حكم صارغون ولحكم خليفه المباشر.

على هذا الازدهار الجديد لمدينة إبلا يأتي اخيراً رد الفعل العنيف لنارام ـ سن الاكادي، الذي استفاد من فترة ضعف مفاجئة خلال حكم الملك إبي ـ زابيش خلف إيبريوم، فقام باحتلال وتقويض مدينتي أرمان (يرى البعض انها مدينة حلب ولكن ذلك ليس مؤكداً حسب البعض الآخر. المترجم) وإبلا: إبلا التي «منذ ان خلق الانسان لم يدمرها ابداً ملك من بين الملوك»!.

كان الدافع الذي حدا بإبلا الى القيام بتوسع سياسي حتى الى ماوراء الحدود السورية ذا طبيعة اقتصادية محضة، فهو استثمار ذكي لبعض الثروات الطبيعية المحلية ـ الاخشاب بالدرجة الاولى ـ استثمار تسانده حصيلة تطور زراعي مزدهر.

التشكل العفوي لتنظيم، كان في بادىء الامر على مستوى المدينة بهدف تنسيق العمل والانتاج ثم غدا حكومياً شاملاً بغية القيام بفرز فوائض الانتاج وتوزيعها، لم يجرِ دون نتائج اقتصادية عمّت المنطقة. فقد تمخض عنه تحسن عام في الشروط المعيشية، وانتحاء الى اكتظاظ سكاني نتج عنه ازدياد المؤسسات ونموها وتحضر الجماعات البدوية خاصة على طول امتداد المحاور التجارية الرئيسية.

ليست هذه الظاهرة الواسعة النطاق في الواقع الا النتيجة القصوى للعملية التطورية التي كانت قد بدأت في عهد ماقبيل السلالات بتواجد التجارة السومرية تواجداً دائماً ومستمراً في الاسواق الغربية. يواكب هذه الظاهرة تطور ثقافي عميق. في هذا المجال الثقافي من الأكيد ان بصمة التأثير الرافدي ماثلة دائماً بوسيلتيها الاكثر انتشاراً والاكثر تحكماً: اللغة والكتابة. من حيث اللغة ـ اي السومرية ـ ستحاكيها في إبلا تجارب محلية مستقلة، يتزايد فيها التحرر من المخططات الفكرية الرافدية بتزايد نمو الوعي بالهوية السياسية والاجتماعية، وهكذا تكون اللغة المحكية في إبلا، الابلائية، لغة سامية غربية ذات تطور محلي، وهي مستخدمة جنباً الى جنب مع اللغة السومرية التي تحتفظ بالأولية الثقافية التي ستستمر في الحفاظ عليها مدة اكثر من الف سنة.

نرى نفس العملية التطورية في الدين والاسطورة، حيث تتواجد آلهة محلية مثل داغان ورَشَف وكاميش ودامو مع آلهة رافدية مثل إنتيل وزابيش وشماش وإنكي وأوتو وإنانا كذلك تتواجد معتقدات شعبية صيغت في تعاويذ مع اساطير سومرية بارعة تشهد على استمرار التأثير الرافدي.

أما تنظيم الدولة والبنيان الاجتماعي، فمن الجلي انه ثمرة اعداد داخلي ومستقل مرتبط بمقتضيات اجتماعية ـ سياسية محلية. وهكذا يوجد في قمة السلطة ملك، (ملكوم في اللغة الابلائية)، يسانده في مهامه القضاة او الاباء، بينما يكلف موظفون من الدرجة العليا بحكم المدن الرئيسية من المملكة حكماً لا مركزياً وبالاشراف على ادارة القصور الملكية وقطاعات المدينة، درجة اللامركزية السياسية الفعلية واضحة ايضاً في الادارة المباشرة التي تضطلع بها ادارة القصر وادارة التنظيم الزراعي والرعوي للمنطقة وادارة النشاط التجاري المركز على تصنيع حكومي للمنسوجات، وعلى صناعة حرفية مزدهرة للأثاث الخشبي.

اذا أخذنا بعين الاعتبار ان /11700/ موظف مستخدم في هذه المنظومة المعقدة، نفهم حقيقة تمفصلها والحركة الاقتصادية التي تتمخض عنها. حركة هدفها بكل تأكيد ان تحدث تلك الآثار الخيِّرة التي سبقت الاشارة اليها، على الاقل كرد فعل لتداول المنتوجات ولتشغيل عدد كبير من اليد العاملة، حتى ولو كانت مصالح الطبقة الحاكمة هي وحدها الغاية من كل ذلك.

ينعكس التنظيم الاداري لدولة إبلا على تنظيم مدينتها، التي تصفها النصوص مقسمة الى اربعة احياء متناظرة مع ابوابها الاربعة التي تحمل اسماء الألهة الرئيسية.. لايبدو هذا التنظيم اتفاقياً، ولعله كان مرتبطاً بعقائدية اكثر شمولا تقوم على تقسيم رباعي للكون ينجلى في لقب «ملك اركان الدنيا الاربعة» الذي اتخذه «نارام ـ سن» بعد استيلائه على إبلا، ويؤكده رمز رباعي الاقسام يحمله «أطلس» «بطل عار» يظهر في نقوش مجوهرات السلالات الملكية المحلية.

من بين قصور المدينة الثلاثة التي تذكرها النصوص، لم تتمكن بعدُ الحفريات الاثرية في تل مرديخ الا من الكشف عن القصر الملكي والجناح الاداري ووثائق الدولة. في هذه المكتشفات يظهر التحرر من معايير الطرز السومرية كلياً. فقد بني القصر في الواقع بعيداً عن أي مخطط صارم معين مسبقاً، وهو يمتد بشكل حر على المنحدر الغربي للأكروبول من دون ان يسيء الى الانحدار الطبيعي لهذا السفح وانما يتكيف معه ويستفيد منه في تفرع داخلي وظيفي للاقسام الثلاثة التي تؤلفه: المخازن في الشمال في المستوى الأكثر ارتفاعاً، والجناح السكني في الشرق، والجناح الاداري في الجنوب والجنوب الشرقي، وفناء خارجي كبير في الغرب مزين بأعمدة على طول واجهة القصر مع منصة ملكية تحدد وظيفته كمكان للاحتفالات الرسمية. وجود هذه الأروقة المعمدة وتكرار الاعمدة الخشبية في كافة ارجاء القصر يشكلان عنصرين اصيلين ومستقلين للهندسة المعمارية السورية في ذلك العصر، وهما يرتبطان بكل تأكيد بالمواد الاولية المتوافرة وسيميزان في المستقبل التقليد المعماري المحلي. يوجد كذلك عنصر اصيل ثالث هو انتشار استخدام التنزيل الصدفي في العوارض الخشبية بزخارف هندسية وزهرية لتزيين درجات السلالم المؤدية الى كل طابق ثان، تقليد يرقي في المنطقة الى عصر (جمدة ـ نصر) وقد شاهدنا ذلك في زخارف معبد تل ـ براك، المستوحاة بكل تأكيد من الزخارف الرافدية المماثلة..

تحت صف الأعمدة الشرقي تنفتح قاعتا الوثائق اللتان انجزتا بوجه الاحتمال قليلًا بعد الانتهاء من تشييد كامل القصر، وخاصة منهما القاعة L 2769 التي كانت تؤلف مكتبة حقيقية فيها رفوف خشبية كانت الرُقم منضدة عليها ومبَوبة بحسب موضوعاتها، هذه الرُقم التي عثر عليها المنقبون في ارضية القاعة نتيجة الحريق الذي دمّر القصر. تعنى هذه الوثائق بكل مجالات حياة الدولة: قوائم بالداخلين الى القصر والخارجين منه، مخصصات الرسل، وقوائم بالأتاوات، معاهدات ورسائل وبيانات حربية. وتظهر فيها الحياة الفكرية والدينية في نصوص ادبية وقصائد اسطورية، وتحتوي ايضاً على معاجم ابلائية ـ سومرية ونصوص مدرسية تشهد على الدور الريادي الذي كانت تقوم به المدينة في نقل عناصر الفكر الاساسية.

يعكس النتاج الفني الذي عثر عليه في إبلا بأمانة اصالة الثقافة السورية وتحررها من الطرز السومرية. ويمثل الاثاث المنقوش النوع الفني الأكثر تمييزاً للفن السوري، وهو انتاج حرفيين محليين يدينون بخبرتهم التقنية لتقاليد عميقة الجذور.. لوحات من طاولة وكرسي، نقش عليهما مشاهد من تصارع الابطال وتصارع انصاف الألهة والوحوش، تشهد على أسلوب اصيل ومتطور يمكن تصنيفه في واقعية تشكيلية صارمة. ونملك ايضاً على الذوق الفني المنتشر في المدرسة الفنية المحلية ادلة من تجارب فنية اخرى، كالأشكال المزيجة في لوحة خشبية نفذت بالنقش البارز وحسب تقنية متعددة المقاسات، يعطينا عنها مثالاً ثور مصغر بشري الرأس لُبّس وجهه وجسده بورَقة ذهبية وصنعت لحيته من حجر الدهن وقاعدته كانت على الارجح من الخشب. دائماً على الخشب كان يتم تنزيل الصدف والحجر الكلسي في نقوش تمثل مشاهد فكرية وحربية مرسومة حسب قواعد تشكيلية رافدية نموذجية.

يمكننا تقييم درجة التبعية ـ الاستقلالية التي بلغتها الثقافة التشكيلية الابلائية بالنسبة الى الثقافة السومرية بفضل مجموعة كبيرة من السمات المهورة بخواتم موظفي القصر عثر عليها في المخازن. هنا تضاف الى قائمة نماذج فن التشكيل الرافدي من اشكال الانسان الثور والابطال والوحوش المتصارعة بعض التصورات المحلية ثمرة العقائد الدينية الشعبية الاصيلة، مثل البطل العاري الذي يحمل رمزاً رباعي الاجزاء، ورأس انسان ذي قرنين، وشكل جبهي مؤنث يسيطر على أسدين أو يحمي ثورين. الاسلوب في النحت هو دائماً متماثل ويقوم على التأثيرات الشكلية البسيطة المتكيفة مع الوسيلة التقنية التي تعبر عن الذوق المحلي المحب لما هو طبيعي.

وباختصار، في العصر الاكادي يمكننا ان نجد في ثقافة إبلا، التي تطورت كرد اصيل على نماذج ثقافية سومرية بعيدة المنشأ، نواة جميع العناصر المميزة للحضارة السورية في عصريها القديم والوسيط. وعلى غرار ذلك، يشكل منذ الآن بنيان هذه الحضارة الاجتماعي ـ الاقتصادي، القائم على تمفصل النشاطات التجارية والزراعية والرعوية، وضعاً ـ مرسوماً بصرامة لأسباب تطور طبيعي ـ قَدَره ان يكون تراثاً تتناقله الاجيال عبر العصور المتتالية. ففي الواقع، من بين التجارب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي حققتها إبلا خلال هذا العصر، فقط التجارب السياسية منها ستكون ظاهرة فريدة لا استمرار لها من جراء مواجهتها المتواصلة مع القوى السياسية الرافدية.

من بين النتائج العديدة للتحسن الاقتصادي العام الذي نشهده في سورية في مطلع العهد الاكادي، النتيجة الأكثر جلاء هي، بكل تأكيد كما قلنا سابقاً، تطور المنشآت الحضرية التي تكاثرت

بصورة خاصة على امتداد الطرق التجارية الأكثر اهمية. وهكذا نجد على طول مجرى الفرات، مدينة ايمار (مسكنة حاليا.. المترجم) التي تذكرها نصوص إبلا، ومنشآت تل ممباقه وتل سلنكحيه. ويبين لنا الخزف والآجر المشوي والهندسة المعمارية (بصوة خاصة المبنى الحكومي في تل سلنكحيه برواقه ذي العمود الخشبي المركزي) المميزات الثقافية لهذه المراكز الحضرية. هذه المميزات التي تؤكد تجانس الثقافة السورية في هذا العصر، يقيناً، نتيجة الوحدة السياسية التي حققتها إبلا.

أما مدينة ماري فينتهي عصر ماقبيل السلالات في كل مكان فيها وسط حريق هائل وآثار دمار واضحة نسب تارة الى صارغون وتارة اخرى الى لوغال ـ زاغيزي (A.Parrot)، بينما وثائق إبلا المتعلقة باستيلاء (إنا ـ دجن) عليها تفتح الباب الى فرضية جديدة. فمن المؤكد ان مستوى الحفريات المنسوب الى العصر الاكادي يفسر الأزمة السياسية للمدينة وتبعيتها النهائية للسلطة الاكادية وذلك من خلال مايكشف عنه من نشاط عمراني محدود يقتصر على اضافة بعض القاعات مقابل معبد داغان، ومن عدد قليل من المنتجات الصناعية التي هي في غالبيتها مستوردات اكادية.

في الواقع اذا تمكن الغزو الاكادي، الذي ربما كان مجرد غارة عابرة، من أن يفصم عرى كيان الوحدة السياسية والتجارية التي اوجدتها إبلا، فهو لم ينجح مع ذلك في أن يضر بالتطور الثقافي الداخلي للمنطقة. فقد اقتصر تأثيره على تجديد رقابة تجارية رافدية مستقرة عبر بعض المواقع المتقدمة مثل «القصر الاكادي» في تل براك..

زيادة على ذلك ، يبرهن مستقبل المنطقة الحفري كما يعرف من نصوص العصر السومري الحديث الاقتصادية بالمقارنة مع عصر ما قبيل السلالات الأكادي الختامي المعروق من نصوص إبلا ، ... يبرهن هذا المستقبل على أن الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الغزو الأكادي لم تكن إلا ظاهرة عابرة . والوثائق الأثرية نفسها لا تكشف عن انقطاع حاد ، وانما تكشف فقط عن آثار واضحة للدمار ناتجة عن حملة (نارام ـ سن) . وحتى الخزف الذي يميز العصر السومري الحديث في كل سورية (بحيرة العمق I) ، أي الخزف الكأسي الشكل الملون والخزف المزخرف باللون البني المدهون بطريقة غير متظمة بمرقاش ذي نتوءات ، ليس إلا تطوراً للطرز الأكادية السابقة . الأمر الذي يبرهن على الوحدة الثقافية للمرحلتين ... وعلى التماثل الثقافي الهام بين المرحلة الأكادية والمرحلة السومرية الحديثة في عصر البرونز القديم الرابع ....

في هذا العصر لا يزال النشاط المبذول في قطاع البناء كبيراً جداً في كل المنطقة السورية ... ففي مدينة إبلا ، رمم الأكروبول وبني درج يصل معبده بالمدينة المنخفضة ، هذا الدرج الذي يعود بناؤه لأول مرة وبكل تأكيد إلى هذا العصر . الأمر نفسه ينطبق على المعبد الشمالي في المدينة المنخفضة الشمالية . هذا بالاضافة إلى أننا استطعنا تحديد هوية تل مرديخ على انه مدينة إبلا بفضل تمثال نذري يعود إلى نهاية العصر السومري الحديث إو إلى مطلع العصر اللاحق كان قد قدمه إلى الآلهة عشتار (أبيت ـ ليم ـ بن أغريش حيبا) ملك إبلا .

نستخلص من كل ذلك أن العصر السومري الحديث يظهر أيضاً في كل مكان من سورية على أنه عصر نمو حضري وثقافي كبير ملتحم بالتقاليد الأكادية السابقة التحاماً كلياً ، في مناخ سياسي لم يعد لإبلا فيه هيمنة سياسية ولا فعالية وحدوية ولكنه ما يزال مستقراً وهادئاً بالرغم من تبعيته الجزئية للنظام التجاري لسلالة اور الثالثة .

العصر السوري القديم (2000-1600 ق.م)

في نهاية الألف الثالث نلمس عديداً من دلالات الأزمة في المنظومة السياسية والاقتصادية المعقدة التي وضعتها سلالة اور الثالثة . علامات تعود بشكل خاص إلى عدم استقرار الجماعات البدوية في الصحراء السورية ، وتتجسد في بعض الحالات بهجمات مسلحة حقيقية تجبر ملوك اور على تبني موقفاً دفاعياً. كانت هذه الجماعات المسماة «أمورو» باللغة الأكادية و«مارتو» بالسومرية معروفة في عصر ما قبيل السلالات في العصر الأكادي ، ولكنها اشتهرت في العصر السومري الحديث بسبب نشاطها المتنامي في سوريا وإتسامه بضغوط على بلاد الرافدين اكبر ، وتحركات في إتجاهها اكثر تواصلاً ...

لا يبدو أن هذه الجماعات قد بدأت بالقيام بأعمال تعكر أمن الطرق التجارية قبل العصر السومري الحديث . ويمكن رد هذه الظاهرة الخاصة في هذا العصر إلى أزمة السيطرة السياسية المركزية في مدينة إبلا نتيجة الغزو الأكادي ...

أول حدث ذي مغزى له علاقة بهذا الوضع هو بكل تأكيد التغير الثقافي والسياسي الذي يسم ، في كل أرجاء سورية ، الانتقال من عصر البرونز القديم إلى مطلع عصر البرونز الوسيط . فجميع المدن الكبرى التي قامت في الألف الثالث ، وبدون استثناء ، عرفت في السنين الأولى من الألف الثاني تغيراً جذرياً على صعيد تنظيم المدن أساء إلى مظهرها القديم .

الشاهد الأكثر وضوحاً على الزوبعة السياسية التي وسمت هذه السنين هو إقامة تحصينات من التراب مكسوّة بطبقة من الحجر الكلسي . لم يعتمد هذا الأسلوب الدفاعي في قَطْنة (المشرفة) وإبلا وكركميش فقط وإنما نراه أيضاً في كل التلال السورية التي لم تجر فيها حفريات بعد ، ولكن نجد فيها خزفاً من عصر البرونز الوسيط .

في أول هذا العصر تظهر جميع المدن بمظهر ينم عن إعادة تنظيم عام . يبنى في إبلا سور ضخم من التراب المرصوص له أربعة أبواب تتطابق مواقعها مع مواقع أبواب المدينة الأكادية . نلاحظ هنا بوجه عام ميلاً إلى عدم تغيير هيئة المدينة القديمة بتبديل مواقع أحيائها ...

وعلى العكس من ذلك تطرأ تبدلات هامة على تقنيات هندسة العمارة . هنا يظهر أن العنصر الأكثر تمييزاً هو بنية البناء ذاتها ، ففي الصروح الضخمة يتكون الأساس دائماً من قاعدة متوازنة مستقيمة من الجير والبازلت تقوّيها جذوع خشبية على مسافات منتظمة ليتحمل هذا الأساس إنطلاقة البناء المشيد من الآجر ...

أما من حيث تشكّل مختلف نماذج الأبنية ، فإن التجديد الرئيسي يقوم في أبواب المدن . وذلك بإبتكار مخطط وظيفي ذي كماشة متعددة الأجزاء قابل للإغلاق وللدفاع عن ممره . يأخذ هذا المخطط في باب إبلا (A) مظهراً ضخماً ، وتمفصلاً معقداً ، ذا كتلتين زواياهما متقاربة قليلاً فيما بينها ، وله من الداخل كماشة ثلاثية لزيادة حماية المر ، وجهز زيادة على ذلك من جهته الغربية ببناء متين ذي طوابق وأبراج خارجية وبمطاف للحراسة على السور نفسه .

يعزى الانتشار الواسع لهذا النموذج من أبواب المدن الذي ظهر في نفس الفترة في جميع أرجاء سورية وفلسطين ، والذي سيصبح أحد الثوابت الهندسية المعمارية في سورية والأناضول في عصر البرونز المتأخر والعصر الحثي الحديث ، يعزى هذا الانتشار الواسع إلى صفته الوظيفية المميزة المذكورة أعلاه ...

في عصر البرونز الوسيط الأول ، وحدها مدينة إبلا عرفت تطوراً مختلفاً عن تطور غيرها من بقية مدن الشرق الأدنى . وعلى العكس من ذلك عانت في عصر البرونز الوسيط الثاني من تقلص دورها في سورية الداخلية نتيجة تعاظم نفوذ مدينة يمحاض (حلب) ، ولكنها مع ذلك احتفظت أثناءه بسابق هيبتها الثقافية والدينية وبلغت فيه أكبر اتساع عمراني لها ...

فقد رأينا أن اثنين على الأقل من معابدها التي يرقى بناؤها إلى العصر السوري القديم ـ المعبد (N) في المدينة المنخفضة الشمالية ، والمعبد (D) على المنحدر الغربي من الأكروبول ـ قد أُعيد بناؤهما على أنقاضهما القديمة في أوائل عصر البرونز الوسيط الأول . ثم أضيف إليهما تباعاً المعبد (B1) والمجمع المقدس (B2) في المدينة المنخفضة الجنوبية ... جميع هذه المعابد ، باستثناء الأخير منها ، اتخذت من جديد ما كان لها من نموذجية قديمة ولكن بحلول شكلية مختلفة : قاعة طويلة طولانية ، تبدى في المعبد (D) تخطيطاً أكثر تعقيداً من جراء مدخلها الضخم المؤلف من قسمين عريضين وقليلي العمق ... يؤلف هذا المخطط المنتشر إنتشاراً واسعاً في سورية وفلسطين في هذا العصر ... تطوراً داخلياً في أشكال المعابد كما كانت موجودة محلياً في عهود ما قبيل السلالات الأكادية ...

وعلى العكس من ذلك ، يبدي المجمع (B2) في إبلا مفهوماً ثقافياً مختلفاً في قاعته الرئيسية التي أقيمت فيها منصة من الآجر ومقاعد على طول جدرانها ، وتفرعت عنها من جهاتها الثلاث قاعات ثانوية فيها مذابح وهياكل تحيط بها أُطُر من الحجر .

كما في هندسة العمارة كذلك الأمر في التجربة الشكلية في مجال الإنتاج الفني حيث يتوجب أيضاً أن تلعب إبلا الدور الريادي في تكوين لغة التعبير الفني في العصر السوري القديم ، الذي يقتفي في قسمه الأعظم أثر التراث الأكادي وينبع من تجربة تقنية وأسلوبية معاشة . فتراث الماضي الشكلي يقولب التجارب الحالية ويتحكم بها ، إن كان ذلك من حيث الأسلوب أو من حيث اختيار الموضوعات . وهكذا نرى في نقوش جوانب أجران الماء المقدس من مشاهد طقسية لولائم مقدسة ومعاهدات تحالف ومشاهد أسطورية تمثل البطل العاري والبشر ـ الثيران والآلهات الممثلة جبهياً ، نرى في هذه النقوش استمرارية الأسلوب في تكوين الشكل وتحديد حجم البروز الذي توصل ، عبر تجسيم للسطوح أكثر دقة واستخدام تدرج الضوء ، إلى تعابير نادرة وموفقة من حيث ترابطها الشكلي ...

وفجأة في أول القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وفي وقت واحد في كل من سورية وفلسطين ، يتوقف تجانس البيئة الثقافية الذي ساد فيهما في عصر البرونز الوسيط . فالدمار الذي يسم جميع المراكز الرئيسية في هذا العصر ينسب في فلسطين إلى النشاط الحربي لفراعنة السلالة الثامنة عشرة ، وفي سورية الى ملوك أوائل العهد الحثي : فقد قام حاتوشيلي الأول بتدمير مدينة ألالاخ VII ، وقام مورشيلي الأول بتدمير مدينتي حلب وإبلا ...

ترجمة الأستاذ جورج أبو كسم

موسوعة المورد

عدد الاجزاء 1+10
طبعة 1981 بيروت
الجزء 4 الصفحة 21 .

إبلا Ebla : مدينة أثرية تقع على بعد أربعين ميلاً (حوالي 56 كيلومتراً) الى الجنوب الغربي من حلب ، عند موضع يعرف اليوم بـ «تل مرديخ» . كشفت عنها حفريات قام بها ، ابتداءً من عام 1964 ، فريق من علماء الآثار الايطاليين والسوريين . ومن أهم ما عثر عليه هؤلاء العلماء ، في إبلا ، مجموعة من المعابد والقصور وبضعة ألاف من الألواح الفخارية التي تحمل كتابات مدونة بلغة خاصة اصطلح الباحثون ، على تسميتها باللغة الإبلانية ، ومنقوشة بالخط المسماري . وقد تبين من هذه الألواح أن إبلا كانت عاصمة لملكة ذات حضارة متقدمة ترقى الى العام 2400 ق.م . وتتعاصر مع حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين» .

